التدبّر والتأويل

الشيخ جعفر المهاجر*

(١) إشكاليّة البحث:

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل كلمة «تأويل» القرآنية، من بين عدد من الكلمات، التي ترقى بسبب خصوصيّتها بلغة القرآن، إلى مستوى المصطلح الفذّ المتفرّد. من «تأويل» «روح» «إنزال، تنزيل» «محكم» «متشابه» «وحي» «تفصيل». وقد ظلّت، مع الزمان وتوالي القرون، محافظة على خصوصيّتها ومستواها. فلم تنتشر، بما تحمله من معنى دقيق، هابطة إلى اللسان اللغوي العام، على أي مستوى من المستويات. شأن كلمات أُخريات مما أضافه القرآن إلى اللغة التي نزل بها. من: صلاة، صيام، حج، زكاة، جهاد، قيامة... الخ. وبذلك حافظت، أي تلك الكلمات، على خصوصيّتها، بوصفها لغة قرآنية حصراً، تماماً مثلما كانت عندما نزلت.

ومن الجدير بالذكر والاعتبار أن المفسرين، بمقدار ما أحاط به علمي، لم ينجحوا في التّسامي إلى مستوى هذه الخصوصيّة، ولم يدرسوها على هذا الأساس. بل وسنرى أنهم يلوون عنق الكلمة، ويدفعونها قسراً إلى مستوى اللغة المتداولة، من جهة، وإلى مستوى ما كانت الفرق والمذاهب تخوض فيه من خصام لَدَد، من جهة أخرى. لا نستثني من هذا سوى سيدهم، السيد الطباطبائي، رضوان الله تعالى عليه، في تفسيره الشهير: «الميزان». الذي أفلح، بذهنه الوقّاد، ومنهجيته الصّارمة، وعلمه الواسع، في تحرير الكلمات مما علق بها خلال القرون. فأبعدها عن معناها القرآني الأصيل. ومن الأمانة والاعتراف بالفضل لأهله أن أقول، إن هذا البحث مدين له بالكثير.

* قاضي شرع بعلبك وعالم باحث.

Scanned with CamScanner

والحقيقة أنني عندما بدأت هذا البحث، كنت أدوّن ملاحظات متفرّقة، على سبيل تنظيم التفكير، في مسألة بَدَت لي مفارقة لا تتلاءم مع وحدة التفكير القرآني وصلابته. فلماذا، على كل حال، نجد في القرآن هذا الحثّ على النَدْب إلى تدبّر آياته (النساء/ ٤و٨٢، ص ٢٩، المؤمنون/٦٨). وفي المقابل المنع، أو ما هو بالمنع أشبه، من تأويلها، إما لأن علم التأويل هو لله وحده، على قول قسم من المفسرين، وإما له سبحانه وللرّاسخين في العلم، على قول آخرين. تبعاً لما فهمه هؤلاء وأولئك من معنى الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿...**فأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. وما يعلم تأويله إلا الله والرّاسخون في العلم يقولون: آمنّا به...**﴾. وعلى كلا القولين فإنه ممنوع أو ممتنع، أو ممنوع لأنه ممتنع، على غيرهم.

من الواجب المسارعة إلى القول: إنَّ ما بدا لي مفارقة مبني على الفهم المأخوذ به عند أهل التفسير لكلمة تأويل. وهو يدور على معنيين:

- **الأول:** التفسير، ومثاله النبوي المعروف في ابن عباس رضي الله عنه: «اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل»، ومن أمثلته المبكّرة قول رجل من أهل «الشام» في «صفّين»:

اسمع اليوم ما يقول السّليل إن قولي قول له تأويل

وواضح أن الكلمة في النصين تعني التفسير. والأمثلة على ذلك كثيرة لا تنحصر. وإنما اخترنا هذين المثالين ليدلاّ ضمناً، على أن هذا المعنى أصيل في اللغة المتداولة، يرقى إلى العقود الأولى للإسلام.

- **الثاني:** صَرْف الكلام عن معناه المتبادر، أوّلاً، لسبب موجب. مثل قوله تعالى: ﴿**يد الله فوق أيديهم**﴾[1] الذي لا بد من صَرْف كلمة «يد» فيه عن معناها الحقيقي إلى معنى ثان، يتلاءم مع التصوير القرآني للخالق سبحانه.

هذا المعنى الثاني هو الشائع اليوم ومنذ قرون. والأول كان شائعاً بين قدماء المفسرين. وقد نُسخ أو يكاد.

Scanned with CamScanner

من المغازي الأساسيّة لما عرضناه، حتى الآن، أن الجميع يتجاهلون ضرورة أن يكون هناك معنى ثالث للكلمة، لا هو(تفسير) ولا هو (صَرْف الكلمة عن معناها الحقيقي). لأن كلا المعنيين لا يمكن أن يكون محكوماً بالمنع والخطر، وفقاً لمنطوق الآية. إذ يترتّب على المعنى الأول أن فهم معاني آيات الكتاب محصور بالمولى سبحانه، أو به وبالرّاسخين في العلم. الأمر الذي يتعارض مع حثّ القرآن على تدبّر آياته، وكذلك مع وصفه لنفسه بأنه «مبين» و«بيان» و «هدى» و«نور» في آيات كثيرة. كما يترتّب على المعنى الثاني، أنه لا يجوز صَرْف أي من كلماته عن معناها الحقيقي الأول. ومن المعلوم أن أهل القرآن مجمعون على أنه لا بد من ذلك إجمالاً، في آيات دون آيات. ولا ريب أن سبب الحاجة إلى التأويل بهذا المعنى، هو قصور اللغة والمعرفة البشريّتين عن إدراك المعاني الإلهيّة والأسرار الربّانية وتصويرها. فتأتي الكلمة، مهما تكن درجتها من البلاغة والمطابقة للحال، قاصرة عن تصوير الحقيقة كاملة. وهذا من قبيل العجز في المقدور، وليس العجز في القادر.

(٢) في المنهج:

يتلخّص منهجنا في معالجة الإشكالية التي فرغنا على التوّ من الكلام فيها، باعتماد القرآن مصدراً أساسياً وأولاً لفهم ما تشابه من معاني آياته. أخذاً منّا بأنه تبيان لكل شيء ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء**﴾[٢]، يعني مما هو من منهجه، وبالمقدار الذي أراد بيانه. وهذا تعبير آخر عن قاعدة ردّ المتشابه إلى المحكم. التي جاء الحثّ الشديد عليها في كلمات أهل بيت العصمة عليهم السلام. ومنها الرضوي: «مَن ردّ متشابه القرآن إلى محكمه فقد هُدي إلى صراط مستقيم»، وهو من غُرر الأحاديث. وكلمة «تأويل» هي مما تشابه علينا بين عدة معانٍ. وإن رأى غيرنا أنها محكمة، فوضع لها تعريفاً، واستعملها استعمال من أحكمها، ولا مشاحّة في هذا. فالتشابه أمر نسبي. ورُبّ كلام يكون متشابهاً عند امرىء، مُحكماً عند غيره.

Scanned with CamScanner

وابتغاء مزيد من التأصيل لمنهجنا هذا نقول: إنَّ مما لا يخلو من مغزى، أن الأحاديث المفسِّرة الواردة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام، هي غالباً، بل وغالباً جداً، تطبيق أو جَرْي، وليست تفسيراً بالمعنى الذي درجت عليه كتب التفسير المعروفة. وهو نمط توضيحي، وإن شئت قلت إرشادي، يعمد إلى ضرب المَثَل لبيان معنى من معاني النص. ليس المقصود في هذا النمط من الأحاديث البيانية تفسير كامل المعنى، بل إيضاحه بتطبيقه على ما يجري عليه (ومن هنا سماه بعض المؤلفين الجَرْي). يُملي هذا المَثَل في النص المفسَّر، دون غيره من بقيّة ما ينطبق أو يجري عليه، إما الحاجة الفعليّة إلى بيان هذا المعنى بالذات، وإما كونه أبرز المصاديق. مثل تفسير «الصبر» في قوله تعالى: ﴿**استعينوا بالصبر والصلاة**﴾[٣] بالصوم. أو تفسير «يطيقونه» في قوله: ﴿**وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين**﴾[٤] بالشيخ الكبير ومَن يأخذه العطاش.

المغزى في هذا، وما دعانا إلى ذكره في هذه المرحلة من البحث، أنه يبدو أن الأئمة عليهم السلام تجنّبوا غالباً تفسير كامل معاني آيات الكتاب. تجنّباً منهم لاستنفادها في معنى بعينه. واستبقاءً لها مفتوحة على ما يستجدّ مع مرّ الزمان وتغيّر الأحوال. وأيضاً تعزيزاً لمنهج ردّ المتشابه إلى المحكم، الذي أشرنا إلى حثّهم الشديد عليه. والجمع بين الأمرين، أعني تجنّب التفسير الكامل، من جهة، والحثّ الشديد على إبقاء عمليّة التأمل في النصوص حيّة طبقاً لذلك المنهج، من جهة أخرى، يُكمل أحدهما الآخر. وهذه الملاحظة بشقّيها ذات مرمى عميق لمن تأمّل.

على أن هذا المنهج ليس دائماً بالأمر البسيط الذي يسهل تناوله. فقد يكون المعنى القرآني المعيّن سيّالاً في معانٍ أخرى. بحيث تترابط المعاني وتتلازم لترجع إلى حقيقة واحدة. باكتشافها تُضيء وتُنير كل ما تحتها. وفي هذا ما يُلقي على المتدبّر عبئاً ثقيلاً. إذ عليه أن يستوعب كافة تنويعات الفكرة. ويكتشف أماكن التلازم والتكامل بينها. لكن الجائزة التي يفوز بها، إن وُفّق في

Scanned with CamScanner

سعيه، تستحق ما بذل من عناء. ذلك إذ يلمس لمس اليد التوافق المعرفيّ الكامل في كتاب الله. ويُصدِّق تصديق من انكشف له غطاء معنى قوله سبحانه: ﴿**أفلا يتدبّرون القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً**﴾[٥] وسيرى القارىء أن ما نعالجه هنا مثال واضح على هذا المنهج.

(٣) كلمة «تأويل» في القرآن:

وردت كلمة «تأويل» في القرآن خمس عشرة مرّة. أكثر من نصفها، ثماني مرّات بالتحديد، في سورة يوسف وحدها. ومرّتان في سورة الكهف، والخمس الباقيات موزّعة بين آل عمران والأعراف ويونس والنساء والإسراء. ونعتقد أن معناها أبين ما يكون في سورتي يوسف والكهف. لأن المؤوّلة به ووجه التأويل محكيّان فيهما في سياق القصّة.

ومن المعلوم أن سورة يوسف تقصّ العناصر الرئيسيّة من سيرته التي تدور على أربعة أحلام مما يراه النائم. أولها ما رآه لنفسه في مقتبل عمره، وحكى له رمزاً مستقبله البعيد، وقد جاء تأويله في خواتيم السورة. والثاني والثالث رؤيا رفيقيه في السجن. وكان تأويل يوسف الصادق لهما سبباً في وصول شهرته في تأويل الأحلام إلى عزيز مصر. والرابع رؤيا العزيز نفسه، التي كانت سبباً في إخراجه من السجن، واستخلاص الملك إياه لنفسه، وجعله على خزائن مصر.

ومن المعلوم، ثانياً، أن تأويل تلك الأحلام الأربعة، لم يكن إلا عبارة عن تحويل لغتها الرمزيّة إلى حكاية وقائع تحقّقت في ما بعد. وتعليم يوسف «تأويل الأحاديث»، الذي وردت الإشارة إليه ثلاث مرّات في السورة، في مطلعها وخواتيمها (الآيات: ٦ و٢١ و١٠١) هو، بدلالة السياق العام، يعني تأويل الرؤيا. باعتبار أن الرؤيا هي من حديث النفس للنفس. أي أن الصُّور التي ترتسم في نفس الرائي هي من صنع نفسه هو. وهذا الفهم هو من اللّفتات البارعة لسيدنا الطباطبائي[٦].

Scanned with CamScanner

أمّا المرّتان اللتان وردتا في سورة الكهف، فإنهما من قصّة موسى عليه السلام والعبد العارف الذي لقيه ورافقه. وأنكر عليه موسى خَرْق السفينة وقَتْل الغلام وإقامة الجدار لأهل قرية رفضوا أن يضيِّفوهما. فأوّل العبد العارف للنبي ما لم يستطع عليه صبراً، أي بيّن له ما خفي عليه من أسباب ما فعل. ذاكراً له ملابسات لم يطّلع عليها. وبذلك نقله من مستوى من المعرفة يستند إلى مشاهدة ما حدث، إلى مستوى أكمل يجمع بين الدافع والحَدَث نفسه. وهذا هو معنى التأويل هنا. إنه الربط ما بين العمل وأسبابه الخفيّة. أو إعادة العمل أو الحَدَث إلى الملابسات التي سبقته وسوّغته.

إذا اعتبرنا تلك الموارد العشر البيّنة المعنى كافية للبدء بالتماس المعنى القرآني العام لكلمة «تأويل»، ولا شك أنها كافية من الوجهة العدديّة على الأقل، لوجدنا أنها بعيدة كل البعد عن تفسير معنى الكلام أو صرفه عن ظاهره. أي أن التأويل ليس تفسيراً، بمعنى شرح الكلام. وكذلك ليس صرفه عن معناه الحقيقي الأول، إلى معناه الثاني المجازي. كما أطبق عليه أهل التفسير، وفقاً لما فصّلنا الكلام فيه آنفاً. بل هي ترمي إلى أمر أبعد من ذلك. إلى أمر أشدّ علاقة بالجذر الذي اشتُقّت من الكلمة (أوّل). أي ما يأول إليه الأمر فعلاً وحقيقة وواقعاً، وليس على مستوى الكلام والمعاني.

هذا الفهم يتعزّز بقوّة لدى المتدبّر، حين يقف متمعّناً على موردهما في سورتي النساء والإسراء:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول، إن كنتم تؤمنون بالله وباليوم الآخر. ذلك خير وأحسن تاويلا﴾(٧).

﴿وأوفوا الكيل إذا كلتم، وزنوا بالقسطاس المستقيم، ذلك خير وأحسن تاويلا﴾(٨).

الآيتان تصفان ما تأمران به، من طاعة الله والرسول، وردّ النزاعات

Scanned with CamScanner

إليهما، وإيفاء الكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، بأنه «خير وأحسن تأويلا». ولا ريب أن التأويل هنا هو أمر عملي، لا علاقة له بعالم المعاني والتصرّفات في الكلام على الإطلاق. الخطاب هنا هو خطاب تنظيمي، يندرج في المشروع الإسلامي الاجتماعي العام. ويعمل على إقامة مجتمع يتقوّم بالطاعة الكليّة للنظام، وإلى الانضباط الشامل تحت لواء قانونه. وكأنهما، إذ تفاضلان بـ «خير» و «أحسن»، تقولان، إنه وإن بدا لبعض الناس أن الخروج على النظام قد يجلب لهم منافع عاجلة، فإن المكسب العام الذي يناله الجميع بالطاعة والانضباط هو خير وأحسن للجميع في نهاية الأمر وما يأول إليه. وهذا مبدأ جليل. يتوقّف على حُسن إدراكه من الناس، فهمهم للوظيفة الاجتماعية لفضيلتي الطاعة والانضباط، ويربّيهم على الحرص على إقامة النظام.

خلاصة ما عالجناه حتى الآن: تأويل الأحلام هو ما سيكون وفق ما تدلّ عليه. وتأويل الأفعال هو ما كان منها بحسب نظر المؤوّل. وتأويل الأمور التي يتقوّم بها النظام هو النتائج الطيّبة العميمة التي تحصل من الانقياد له الأمر الجامع الذي تتقاطع عنده كل الموارد هو: إن نتيجة التأويل هي التلازم بين موضوعه وبين ما هو موجود أو سيوجد حقيقة وفعلاً، بحيث يمكن لمسه ومعاينته مثل أي شيء قائم موضوعياً خارج الذهن ووظائفه. هذا ما نصل إليه من تحليل اثنتي عشرة آية من الآيات الخمس عشرة.

والآن هل يمكن تطبيق هذا الفهم لمعنى كلمة «تأويل» على الآية التي بدأنا بها إشكالية البحث؟

في سبيل الجواب سنعمد إلى تحليل الآية، تاركين الآيتين الباقيتين من الآيات الخمس عشرة إلى ما بعد، لعلاقتهما بمرحلة تالية من البحث. وعلى سبيل التذكير نقول، إنها قوله سبحانه: **﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب، منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهات. فامّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه، ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله. وما يعلم تاويله إلا**

Scanned with CamScanner

الله. والراسخون في العلم، يقولون آمنّا به، كلٌّ من عند ربنا. وما يذّكر إلا أولو الألباب﴾[٩].

ومن المفيد أن نقف أولاً على سبب النزول، لأنه يُلقي ضوءاً منيراً على موضوع التأويل ونهجه. حقاً إن الحكم بأن اتّباع المتشابه هو ابتغاء للفتنة (= الإضلال، التضليل) والتّأويل هو بمثابة حُكم عام، وأن المورد لا يخصّص الوارد، كما يُطبق أهل القرآن. ومع ذلك فإن المورد الخاص ذو علاقة أكيدة بالمبدأ العام، على الأقل لأنه أحد مفرداته.

ويقول أهل التفسير: إن سبب نزول الآية، إن وفد «نجران» النصارى لمّا حاجّوا النبي، صلى الله عليه وآله، في المسيح عليه السلام، قالوا: «أليس هو كلمة الله وروح منه؟» فقال: «بلى» فقالوا: «حسبُنا»[١٠]. ونحن نتبيّن من هذا الكلام، أن ما أخذته عليهم الآية، بحيث قالت أنهم بُغاة تضليل وتأويل، هو أنهم فسّروا «كلمة الله» و «روح من الله» القرآنيتين[١١] وفق مرادهم، وبما يتناسب مع معتقدهم بأن المسيح هو ابن الله. مع أن العبارتين لا تدلان على ذلك بالتحديد. بل على معنى آخر يتصل بولادة المسيح من غير أب، بالإرادة الربانيّة المباشرة، التي تجاوزت الوسيلة العاديّة. وتفسير أولئك يتضمّن أنهم يعرفون من معاني القرآن ما لم يقُله، وينسبون إلى الله سبحانه ما لم ينسبه لنفسه، وهو أدرى بفعله. التأويل الذي كان سبب نزول الآية، هو المطابقة بين «روح الله» و «كلمة من الله» وحقيقة خارجيّة مزعومة هي أن المسيح ابن الله.

الفارق بين المنهج السليم والآخر السقيم، في هذه المسألة وأمثالها، يمكن تلخيصه في ما يلي:

الأول، أي السليم، يقف عند حدود اللغة متدبّراً معانيها، وفق قواعد فهم المعاني من الكلام. ومن ذلك ردّ ما التبس معناه بين عدّة معانٍ (المتشابه) إلى ما بان معناه. فنفهم قصد القائل من ضرب كلامه بعضه ببعض. ومنه الرجوع إلى مَن هو أدرى منّا بمعاني الكلام الخاص. نقول «الخاص» لأن من المعلوم أن لكل علم ونمط من المعرفة مفرداته الخاصة به، التي تختلف معانيها عن

Scanned with CamScanner

المفردات نفسها في علم ونمط آخرين. ومتدبّر القرآن عن علم يلاحظ أنه جاء بقاموس من المفردات، يمكن أن نسمّيه لغة القرآن. وليس هذا، في عمومه، بالأمر البدع. فالتجديد في المعاني يستدعي ويستلزم تجديداً موازياً في المباني. ولا مراء في أن القرآن قد جاء من أُنزل عليهم بنظام فكري جديد. إذن فمن الطبيعي والمتوقع أن يأتي أيضاً بنظام لغوي جديد، موازٍ لذاك.

أما الثّاني، أي السقيم، فإنه يدّعي ضمناً صدوره عمّا يتجاوز معاني الكلام. الأمر الذي يمكن أن يكون أفكاراً جاهزة مسبقاً وسلفاً، تعكس أهواء أصحابها وأفكارهم الخاصة. وهذا منهج يعكس اتجاه التأثير. فبدلاً من أن يكون القرآن مصدراً يغدو مورداً. وبدلاً من أن يكون مؤثراً يغدو متأثراً. وما أكثر ذلك في ما تركته الفِرَق والمذاهب المتخاصمة. وما أكثر ذلك خصوصاً في ما تركته المدارس الصوفيّة المختلفة، من تأويلات لنصوص الكتاب، تبتعد بنسب متفاوتة عن مرامي القرآن المبينة.

المهم، بالعود إلى عمود البحث، إن كلمة «تأويل» في الآية تندرج في المعنى نفسه الذي وصلنا إليه من قبل بتحليل الآيات الإثنتي عشرة. ذلك أن مَن ادّعى أن «كلمة الله» و «روح الله» تعني أن المسيح هو ابن الله، ادّعى ضمناً التطابق بين النص وبين حقيقة خارجيّة مزعومة لا دليل عليها. وذلك هو التأويل المذموم، لأنه دعوى عن غير علم. وإذا كان مضمون التأويل يعكس أفكار أصحابه المسبقة، وخصوصاً إذا تعارض مع مفاهيم القرآن يكون فتنة وتضليلاً.

ويمكن لمن يريد أن يتأمل في المنهج القرآني هنا بالذات، أن يقرأ فيه جانباً من جوانب إعداد الإنسان المسلم وتربيته وبنائه بناءً فكرياً صلباً. بحيث لا يقبل إذ يقبل ما يُعرض عليه إلا عن بيّنة، وبالمقدار الذي قامت عليه البيّنة، واستناداً إلى منهج مقرّر. إذن، فالمسألة هنا غير محصورة في المنهج الذي على المسلم أن يعتمده في فهم ما تشابه من نصوص القرآن، إنما هي أبعد من ذلك. بل يمكن القول: إن ما يتعلّق بفهم هذه النصوص إنما هو تطبيق لما هو أعم

Scanned with CamScanner

وأشمل بحيث يتناول كل نص. وليس من خطتنا الآن أن نخرج عن عمود البحث، والتوسع في بحث هذا الموضوع، استناداً إلى منهج القرآن في الدعوة والإيمان.

يبقى أن نقول، قبل مغادرة هذا الفصل: إن التحفظ الوحيد على ما وصلنا إليه من نتيجة، يتعلّق بنقص الاستقراء، لأننا تجاهلنا حتى الآن مورد الكلمة في آيتين من الآيات الخمس عشرة. سنقف عليهما قريبا، حيث سيأتيك لنتيجة البحث حتى الآن مزيد بيان.

(٤) من أين تتأتّى مشكلة التأويل:

وقفنا على سبب النّزول أعلاه، استعانةً به في فهم كلمة «تأويل»، وأعتقد أننا فُزنا من سعينا بما نرجوه.

لكن علينا الآن أن نقول: إن سبب النزول هو المناسبة التي استدعت نزول الآية وليس أكثر. أي أنه ما من علاقة موضوعيّة بين أصل الفكرة، أو المبدأ المصرَّح به في الآية المنزلة، وبين سبب النزول. بل يمكن القول: إنَّ العلاقة هي علاقة توقيت أو ما شابه. يترتّب على هذا أن المبدأ، أعني منع التأويل، أصيل في النظام الفكري القرآني، وليست أمراً عارضاً استدعته مناسبة. وما دام كذلك فيجب أن يكون سارياً في هذ النظام. لذلك فإن علينا أن نبحث عمّا يتصل بمعنى التأويل وحُكمه في موارد أخرى، لا تبدو للوهلة الأولى ذات علاقة بما يطرحه البحث من مشكلات. لكننا بالتمعّن والتدبّر، وبجمع المعاني بعضها إلى بعض، يمكن أن نرى ما لم نكن نراه بالنظرة العجلى وبالأخرى المفردة. وبذلك نُطلّ على كنوز من المعرفة ذفرها المولى لمن يعرف كيف يسعى إليها، متجمّلاً بالصبر، متسلّحاً بالمنهج الصحيح. واضعاً نصب عينيه الوعد الإلهي الكبير الذي في قوله تعالى: **﴿أفلا يتدبّرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾**[١٢]. مسترشداً بالحديث الشريف عن الإمام الصادق، عن أبيه، عن آبائه، عليهم السلام، عن رسول الله

Scanned with CamScanner

صلوات الله عليه وآله: «.... ظاهره (أي القرآن) أنيق وباطنه عميق. له تخوم، وعلى تخومه تخوم. لا تُحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه».

وإنني أرى، بعد التأمل في ما اجتمع لدي من نصوص تتصل بالموضوع، أن مفتاح الكلام في هذا، هو ما بقي من الآيات الخمس عشرة، التي ورد فيها ذكر التأويل، وأرجأنا تدبرهما إلى الموضع المناسب، وهذا هو.

أما الأولى فهي قوله سبحانه:

﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم، هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله، يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق...﴾(١٣).

وأما الثانية:

﴿بل كذّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولمّا يأتهم تأويله..﴾(١٤).

ولا ريب في أن موضوع الآيتين هو القرآن بشهادة السّياق. والآية الثانية أبين من الأُولى في هذا. لكن وصف الكتاب في الأُولى بأنه مفصّل «فصّلناه» هو بمثابة وقوة النص على أن المعنيّ بالكلام هو القرآن، وليس غيره من الكتب المنزلة. لأنه من الأوصاف الدائرة في القرآن عن نفسه.

نستفيد من الجمع بين النصّين أمران:

- **الأول**: أن لنـ ريل القرآن وقت وإبّان «يوم يأتي تأويله».
- **الثاني**: إن هذا الوقت لم يأتِ بعد «لمّا يأتهم تأويله».

وليس من بُغيتنا من الوقوف عند هذا المعنى أن نغوص في أسراره، فقد يكون ذلك من التأويل المذموم، ما دام المولى سبحانه لم يبيّنه لنا. وما دمنا لا نملك أدوات البحث فيه. لكن لا بدّ لنا من أن نلاحظ أن النص الأول يأتي في سياق الحديث عن أسرار الحياة الآخرة، وبالتحديد الأعراف وأصحاب الأعراف. مما يودع في ذهن المتدبّر أن ذلك الإبّان ليس من شؤون الحياة الدنيا. ولعله يوم ينكشف عن الإنسان غطاء الحواس الضعيفة، فيرى الحقائق التي حدّثه

Scanned with CamScanner

عنها القرآن رأي العين. ويغدو بعض عالم الغيب بالنسبة إليه عالم شهادة ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد. ونُفخ في الصور ذلك يوم الوعيد. وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾[١٥].

لكن أهم ما نخرج به من تدبّر الآيتين، بالنسبة لبحثنا هو: إن تأويل ما تشابه من القرآن ليس طوع من يسعى إليه من البشر، مهما ملك من أدوات البحث والنظر. وأنه مذخور لوقت معلوم. حين تتبدّل شروط المعرفة عند الإنسان. وهذه فكرة قد تبدو غريبة لأول وهلة عند إنسان يعرف أن الله تعالى أنزل كتابه المجيد من أجله ﴿إنّا أنزلنا عليك الكتاب للناس﴾[١٦] ﴿بلسان عربي مبين﴾[١٧] ﴿نوراً وهدى للناس﴾[١٨].

لكن الحقيقة هي تماماً على غير ما يبدو. إن كون القرآن قد أُنزل للناس بلسان عربي مبين نوراً وهدى يوجب الفكرة ولا يتعارض معها. وخصوصاً فإن كونه كتاب هدى ونور يجعل من الضروري الوقوف في فهم معانيه، بوصفه كلاماً إلهياً، عند الحدود التي في وسع أدوات المعرفة عند الإنسان أن تخوض فيه، وفي وسع اللغة البشريّة أن تعبّر عنه، أما حين تخرج الأمور عن نطاق هذين وطاقتهما، فإن التربية السديدة للإنسان القرآني توجب تعريفه بالحدود التي عليه أن يقف عندها ولا يتجاوزها. ولا شك أن التأويل، بالمعنى الذي عرفناه وحدّدناه، يقع خارج تلك الحدود.

فمن المعلوم، أوّلاً، أن القرآن، بحكم البناء الفكري الخاص الذي قاد المؤمنين إليه، وبحكم النهج الذي سار عليه في الدعوة والتبليغ والتعليم، قد أتى على ذكر أمور كثيرة، مما لا يقع تحت علم إنسان. من صفات الله تعالى وشؤونه، كالعرش والكرسي واللوح والقلم وعلم الساعة واليوم الآخر والملائكة والوحي وغيب السماوات والأرض. بالإضافة إلى أسرار الخلق والتكوين. مما لا سبيل إلى علمه أصلاً إلا بتعليم العليم الخبير.

ومن المعلوم، ثانياً، أن اللغة البشريّة، أيّاً كانت، ومهما بلغت درجتها من

Scanned with CamScanner

الدقّة والبيان، هي وعاء خبرات البشر. أودعوا فيها ما عرفوا وخبروا من أشياء وأعمال وأحداث ومشاعر، اصطنعها الإنسان ونمّاها ولا يزال. وذلك بعد أن هيّا الخالق سبحانه عقله وأعضاءه، المتعلّقة بوظيفة النطق، لذلك. ولذلك فهي عاجزة عن التعبير عمّا هو خارج هذه الخبرات. وكل ما يأتي من خارج الخبرة البشريّة، سيُفهم معناه بتطبيقه على ما عرفه الناس، وليس على ما يريد المتكلم التعبير عنه بالفعل.

فلنأخذ مثلاً كلمة «عرش» في قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء..﴾[١٩]. ليس في وسعنا، نحن البشر، أن نطبّق الكلمة إلا على ما نعرفه معرفة ما من صنوف العروش، التي يعتقدها الملوك، وما توحي به من عظمة وسلطان. وهو تطبيق بعيد كل البعد عن مرمى الآية. وتترتب عليه محاذير واضحة. ولذلك فإن أهل التفسير يُطبقون على أن استعمال الكلمة هنا هو على نحو المجاز. وهذا هو الحلّ الوحيد الممكن على مستوى اللفظ والمعنى. لكنه لا ينفي، بل يقول ضمناً، مثل كل مجاز، أن هناك مدلولاً حقيقياً للكلمة، عجزت اللغة عن تصويره، لأنه لا يشبه أي شيء مما عرفه البشر.

هذا المثال واضح جليّ. وقد اخترناه من بين أمثاله تقريباً للمقصود. لكن الأمر يصبح أبعد عن الفهم، عصيّاً على أي تطبيق، حين نتلو قوله تعالى: ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويّات بيمينه﴾[٢٠] لأن الآية تقدّم لنا صورة لا تشبه أي شيء من خبراتنا البشرية.

أعتقد أن ما قدّمنا به من تحليل، وما ثنّينا به من مثال، يحدّد المعضلة. إنها نقطة حرجة بين ضرورة وإمكانية. هي، من جهة، ضرورة الورود على ما ذكرناه من معانٍ، لعلاقتها ببُنية العقيدة بدرجة أو بأخرى، وبتبليغها، وببناء عقول الناس حسب مقتضياتها. ومن الجهة الأخرى إمكانية اللغة وقدرتها على الإحاطة بتلك المعاني والتعبير عنها، لأسباب صارت واضحة لدى القارىء.

مثال «العرش» يقدّم لنا نموذجاً للنقطة الحرجة، التي تتقاطع عندها

Scanned with CamScanner

الضرورة والإمكانيّة. وفي الوقت نفسه تحدّد للمتدبر في كتاب الله عن علم حدود ما بين التدبّر المأمور به والتأويل المنهي عنه. إننا عاجزون عن فهم كنه «العرش» وتصور ماهيته. ولكن عجزنا هذا لا يُنافي إطلاقاً التصديق بما جاءت به الآية. فالتصديق بأصل الموضوع شيء، ومعرفة كنهه شيء آخر. وكذلك القول بالنسبة للآية السابعة والستين من سورة الزُّمر، التي قلنا إنها أبعد عن الفهم. ومع ذلك فإننا نقول إنها تودع في نفس المتدبر ما أراد الله سبحانه أن يودعه، وما يسع البشر فهمه، عن نهاية الكون يوم القيامة، وخموده، وسقوط القوانين الطبيعية. وذلك هو المقصود كما يبدو للمتدبّر. وكلا المعنيين، في النهاية، صياغة بشرية لمعان إلهيّة. غاية ما يمكنها تقريب المقصود، بشكل أقرب ما يكون إلى الخبرة البشرية، وبقدر ما تسعُه لغتهم.

علينا، الآن، أن نعود إلى الآية السابعة من سورة آل عمران، التي بدأنا منها هذا البحث. عودة تمليها علينا ضرورة امتحان النتائج التي وصلنا إليها حتى الآن. نتدبّرها ونحلّلها على ضوء من ذلك. وأعتقد أننا بما بيّناه من معنى «التأويل» خصوصاً، سنرى أن مرماها في غاية الانسجام والوضوح. وهذا خير امتحان للأفكار.

هناك ستة عناصر تتآزر في عمارة الآية:

ـ **الأول**: سبب النزول: وقد قلنا آنفاً أن لا علاقة موضوعية بَيْنَهُ وبين مضمون الآية. ونعني بذلك أن لا علاقة بينه وبين أصل العناصر، أو قُل الأفكار أو المبادىء، التي كوّنت الآية. أي أن هذه كانت موجودة في أساس الفكر. وكان لسبب النزول دور المثير والحافز الذي انتهى إلى نزولها بالشكل والنظام والتركيب الذي نزلت فيه. ويمكن تشبيه الأمر بالمشكلة بالنسبة للباحث أو السؤال بالنسبة للعالم. فكلاهما يحدّد عناصر الموضوع ـ هنا: البحث أو الجواب ـ التي كانت موجودة في الذهن. ولكن المشكلة أو السؤال هو الذي جعلها تأتي بهذه الصياغة أو التركيب. ومن أجل ذلك عُني أهل التفسير ببيان سبب النزول. ومن هنا صحّ لنا اعتباره من العناصر التي تآزرت في عمارة

Scanned with CamScanner

الآية. وهو سبب يمكن الإشكال عليه بسهولة. ولكن لا مشاحّة في الأمر بعد بيان الاعتبار.

ـ الثاني: تقسيم آيات القرآن، بلحاظ ما يلزم الإيمان به وما يلزم العمل به، إلى قسمين: محكم، يلزم الإيمان والعمل به معاً. ومتشابه، يلزم الإيمان به فقط. بمعنى يلزم الإيمان بصدوره عن الله تعالى. وهذا التفسير لمعنى «المحكم» و «المتشابه» ينطوي على نوع من المصادرة على الدليل. اضطررنا إليه اضطراراً، إيفاءً لمقتضيات هذه المرحلة منه. وكي لا نخرج ببحثه.. على عمود البحث.

ـ الثالث: بيان أن الذين مالت قلوبهم عن الحق يختارون اتّباع الآيات المتشابهة دون المحكمة. والاتّباع ملحوظ فيه جانب العمل. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن ميل قلوب أولئك عن الحق سبب وسابق على إيثارهم العمل بالآيات المتشابهة.

ـ الرابع: أن بُغية أولئك من العمل بالآيات المتشابهة أمران:

أ ـ الإضلال أو التضليل، أي إغراء الآخرين بالانحراف عن جادة الحق.

ب ـ التأويل، أي تأويل المتشابه. وقد عرفنا المختار من معناه، وأنه تطبيق المؤوّل على أمر محدّد بعينه موجود أو يزعم المؤوّل أنه موجود فعلاً. ولو أن التأويل كان منهجاً وطريقة في استنباط المعنى، كما يقول التفسيران المعروفان اللذان سبق بيانهما، لما صحّ القول فيه أنّه بُغية وغاية. لأنهما من باب الوسيلة والطريقة. إذن، فهذا دليل قاطع، في ما يبدو لنا، على أن معنى كلمة «التأويل» القرآنية ليس ما يرادف اليوم كلمة تفسير، كما أنه ليس صرف الكلام عن معناه الحقيقي الأول. بل هو أمر يتصل بالغاية المسبقة من عمل المؤوّل. وهو فهم يتناسب مع ما ذهبنا إليه من معناها. وهذه ثمرة من ثمرات التدبّر المنهجي الدقيق في كتاب الله.

Scanned with CamScanner

ـ الخامس: أنه لا يعلم تأويل المتشابه من القرآن، يعني الأمور الحقيقية التي تأول إليها معانيه، إلا الله.

ـ السادس: أمّا الراسخون في العلم، أي الذين ثبتت أقدامهم في المعرفة واطمأنوا إلى ما هم عليه، فإنهم، حين تتشابه المعاني عليهم، يعلنون تصديقهم بكل ما في كتاب الله، ما كان منه محكماً، وما كان منه متشابهاً. لأنه كله من حيث الصدور سواء. دون السقوط في تطبيق المعاني على أمور بعينها، تطبيقاً باتاً قطعياً. وفي هذا القسم من الآية إشارة وتلميح إلى أن هذا المسلك من الراسخين في العلم، هو ثمرة من ثمرات المعرفة، وليس مجرد تسليم واطمئنان؛ ذلك أن من شأن العالم أن يعرف البُعد الحقيقي للمشكلة التي يواجهها بعقله وقدرته على الخوض فيها أو عجزه عن ذلك. أما الجاهل، أو غير سليم الطويّة، فقد يُقدم حيث ينبغي الاحجام، أو يُحجم حيث ينبغي الإقدام.

الخلاصة:

إن مشكلة التأويل تتأتّى من أن القرآن المجيد، بحكم مركّبه الفكري الداخلي، قد أتى على ذكر أمور، مما لا يقع تحت علم بشر، ولا في وسع البشر أن يُخضعوها لأدوات البحث والكشف التي تحت يدهم. ولكن هذا لا يعني أنها كلها مما لا سبيل إلى معرفته معرفة ما، باعتماد المنهج الصحيح. فعن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قيل له: «هل عندكم شيء من الوحي؟» فقال: «لا، إلاّ أن يُعطي الله عبداً فهماً من كتابه». وهو حديث جليل عميق المعنى. يدلّ، من جهة السائل، على أنه لم يجد تفسيراً لما يراه عند الإمام من بدائع المعارف إلا أنه وحي يُوحى. وفي الجواب ينفي الإمام، طبعاً، ما راح إليه وهم السائل، نفياً قاطعاً مشفوعاً بالقسم. ليقول: إن ما عنده، مما أثار السؤال لدى مخاطبه، مستنبط من كتاب الله. لكن ما يُلفت المتأمل في صيغة الجواب: ليس عندنا من الوحي إلا... أنها تترك السامع يعتقد أن الفهم من كتاب الله قد يكون في درجة

Scanned with CamScanner

الوحي. ولا ينبغي أن يكون في هذا الكلام أمراً غريباً على مؤمن. فكلا الوحي والكتاب من عند الله تعالى: فهما من جهة الصدور على حدّ سواء. والشأن كل الشأن، بعدُ، أن يعطي الله عبداً فهماً من كتابه. وذلك، طبعاً، بعد أن يكون العبد قد سعى إليه السعي الذي دلّه وحثّه ربه عليه ﴿أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾[٢١].

(٥) ـ بين التأويل والتدبّر

تقدّم لنا الآيات الأخيرة من سورة الزُمر مثالاً ممتازاً للفارق بين «التأويل» و «التدبّر»، بوصفهما منهجين مختلفين في التعاطي مع النص القرآني. وقد كنا قدّمنا الكلام في بعض تلك الآيات، مثالاً على النصوص القرآنية المبنيّة من صُوَر لا تشبه أي شيء من خبراتنا نحن البشر. والحقيقة أن غناها المدهش بالمشاهد العجيبة يحرّك عقل الباحث، ويُغري بالإفادة منها في أكثر من باب.

﴿بل الله فاعبد وكن من الشاكرين. وما قدروا الله حقّ قدره، والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، سبحانه وتعالى عما يشركون. ونُفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون. وأشرقت الأرض بنور ربها، ووُضع الكتاب، وجيء بالنبيّين والشهداء، وقُضي بينهم بالحق وهم لا يُظلمون﴾[٢٢].

إذا تأملنا في الآيات الثلاث، آية بعد آية، يبدو لنا جلياً أن مرماها الأساسي هو حثّ الناس على توحيد الباري سبحانه ونبذ الشرك. لأنه تعالى وحده مالك المُلك، به ينحصر الأمر والحكم والسلطان وإليه المصير. وهو الذي يحاسب الناس على أعمالهم ويجزيهم عليها. لكن تقديم هذه المعاني، التقديم الذي يُحدث الأثر المطلوب، اقتضى إيراد تفصيلات من أحداث يوم القيامة. من قبض الأرض، وطي السماء، ونفخ الصّور، وصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله، وإشراق الأرض بنور ربها، ووضع

Scanned with CamScanner

الكتاب، والمجيء بالنبيين والشهداء، وأخيراً الدينونة. وعلى الرغم من أن هاتيك المعاني مصوغة صياغة أدبية، أشبه بلغة الشعر، فإنها، ولا ريب، ترجع إلى وقائع وحقائق مما سيحدث يوم القيامة. إن عبارة «والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة» تماماً مثل «والسموات مطويات بيمينه»... الخ. هي صياغة تآزر في تركيبها قدرة اللغة البشريّة على التعبر، وقدرة البشر على التخيُّل استناداً إلى خبراتهم وما عرفوه. وهما وجهان لحقيقة واحدة، كما عرفنا مما سلف. ولكننا على يقين كامل، من أن الصورة الأدبية، مهما تكن بليغة ودقيقة، لن ترقى إلى مستوى الحقيقة، التي سينعم الإنسان بمعاينتها، بكامل عظمتها وبهائها، يوم ينكشف عنه الغطاء في اليوم الآخر ﴿وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد. لقد كنت في غفلة عن هذا، فكشفنا عنك غطاءك، فبصرك اليوم حديد﴾[٢٣]. ذلك هو يوم التأويل، أي تطبيق المعاني على الحقائق، لما كنّا قد عرفناه معرفة ما، عن طريق ما قرأنا عنه في كتاب الله ﴿ولقد جئناهم بكتاب فصّلناه على علم، هدى ورحمة لقوم يؤمنون. هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله. . .﴾[٢٤].

على هذا يمكن القول: إنَّ في هذه الآيات، على مستوى التركيب الداخلي أو المعنى، روح أو فكرة أساسية، هي الحثّ على التوحيد ونبذ الشّرك بالله تعالى. وفيها، إلى جانب ذلك، أمور تابعة للفكرة الأساسية وفي خدمتها، هي ما أتت على ذكره من أحداث يوم القيامة. ولا ريب أنه من الأهمية بمكان، بالنسبة لفهم نص بعينه بالخصوص، أن نضع كل جزء من أجزائه في موقعه الصحيح، من حيث درجة مساهمته في بنائه، وتالياً في البناء الفكري لتالي القرآن. على أن هذا لا يمنع أن يأتي في نص آخر ما كان تابعاً هنا أساسياً هناك، أو بالعكس. وهذا واضح، والأمثال عليه لا تنحصر. وهذه القاعدة يمكن للمتأمل أن يستشفّها من كلمة «تدبُّر»، التي وضعها المولى دون سواها، لتحمل التعبير الأنسب عن المنهج الصحيح في التعاطي مع آيات كتابه المجيد. ذلك أن الكلمة تعني: التأمل أو التفكر في القرآن آية بعد آية، بحيث تأتي عمارة المعنى في ذهن المتأمل موازية لعمارته في ما يتدبره من كتاب الله.

Scanned with CamScanner

أعتقد أن بيان الفارق بين منهجي التدبر والتأويل لم يعد الآن بحاجة إلى أكثر من دفعة صغيرة بالاتجاه الصحيح والمطلوب.

التدبر هو: مرافقة المعنى القرآني بالتفكر، باعتبار أنه كلام عربي مبين، صادر عن عليم خبير.

تلك ثلاثة عناصر أساسية، يكمل بعضها بعضاً. بحيث أنها، بتكاملها، تكوّن مركب التدبر الكلّي. وبالمقابل، فإن نقص أي عنصر منها يكفي لانهدام المنهج بكامله. وسنعلّق على كلٍّ منها بما يناسبه.

ـ مرافقة: تعني أن تسير عمليّة اكتشاف المعنى بموازاة النص. فلا تتجاوزه ولا تتحرك خلفه. ساعية إلى كشف معالم الفكرة والمضمون من خلال تلاوين الكلمة المفردة والتراكيب البالغة الدقة.

التأويل لا يمكن أن يتحرّك بموازاة النص. وإلا فَقَد صفته ولم يعد تأويلاً. هو غالباً متجاوز، وأحياناً متخلّف. هذا، مع ضرورة التأكيد على أن من مقتضى المرافقة أن نكتشف روح النص، أي الفكرة أو الأفكار الأساسية فيه. ونميّزها عن المكوّنات التابعة منه. ودائماً تكون هذه في خدمة الفكرة الأساسية. وظيفتها أن تُحدث تأثيراً ما، لصالح الروح أو الفكرة الأساسية.

هنا، لا بد لنا أن نسجّل أننا، استناداً إلى قراءتنا لأعمال التأويليين، خصوصاً كبار شيوخ التصوّف، فإنهم، بالإضافة إلى أنهم متجاوزون للنص، يتجنّبون السير بموازاته، لا يكترثون بما هو روح النص والفكرة الأساسية منه، وما هو خادم وتابع. فيأتي المعنى على يدهم مقلوباً. بمعنى أن ما كان خادماً يغدو مخدوماً، أو بالعكس.

ـ عربي مبين: أي أنه تنطبق عليه مواضعات العرب في لغتهم في عصر نزول النص. وليس المعنيّ بالعرب هنا كل أهل شبه جزيرة العرب. فقد كانوا أمما شتى تختلف لغاتهم. بل المعنيّ لغة أهل الحجاز خاصة، حيث تختلف لغة هؤلاء عن لغات بقية العرب. وهذه حقيقة موضوعية، أملتها ضرورات

Scanned with CamScanner

أقلّها أن القرآن خوطب به أهل الحجاز أول ما خوطب. وليس من المعقول، والشأن هذا، أن ينزل بلغة غيرهم.

يترتّب على هذا، أن كل تفسير لا يُراعي مواضعات العرب هو تفسير مردود. إلا أن يقوم عليه دليل خاص.

هذا، لكن من الضروري جداً هنا أن نقول: إنَّ هذه القاعدة لا تنظر إلى التفسير التطبيقي أو الجَرْي، الذي ذكرناه آنفاً. حيث قلنا: إنَّ هذا النمط من التفسير شائع جداً في الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السلام. ذلك أن ليس المقصود في هذا النمط من الأحاديث البيانيّة تفسير كامل المعنى. بل ضَرْب مَثَل عليه. والذي وجدناه بالتتبُّع، إن ما يُملي المَثَل المضروب دون سواه هو الحاجة إليه، بحسب الظرف السياسي أو التبليغي، وما إلى ذلك. لذلك فهو خارج عن موضوع بحثنا. وأحق به أن يُبحث بوصفه مرآة تعكس الظروف المشار إليها.

ـ أما «مبين»، فهو وصف للكلام، يقول: إنّه مبين عن المعنى. وليس وصفاً للمعنى بأنه مبين عن الواقع، كما هو موجود ومتحقّق في الخارج. عالَم القرآن، بالنسبة لقارئه، وهو عالم ألفاظ ومعانٍ. الألفاظ فيه أوعية لمعانيها. فهو في هذا مثل كلامنا تماماً. وهذه العلاقة بين الألفاظ والمعاني تخضع لنظام العلاقات التاريخي المؤسَّس في اللغة. وليس له أي علاقة بمشيئة مُنزله تبارك وتعالى. أما المعاني نفسها، ومقدار ما تبيّنه من الواقع الخارجي المحكي عنه، فهي خاضعة خضوعاً كاملاً للحاجة والمقتضى. فقد تقتضي الحكمة الإجمال، كما قد تقتضي البيان والتفصيل. أو قد يكون المعنى مستحيل البيان، لأنه من خارج الخبرات البشرية، كما ذكرنا آنفاً. استحالة تتأتّى من أن اللغة البشريّة غير مهيّأة للتعبير عنه. فيأتي الكلام هنا مجملاً، مؤدياً للحدّ الضروري والممكن، الذي اقتضته الحاجة إلى أصل البيان.

ـ من عليم خبير. من غير الممكن، من وجهة نظر منهجيّة بحتة، أن يتدبّر امرؤ القرآن، إلا بعد سبق الاعتقاد بأنه من عند الله، وينبغي أن نسارع إلى

Scanned with CamScanner

القول هنا، أننا نميّز بين «تدبُر» ودراسة مثلاً، أو أي كلمة تشبه هذه. حيث للتدبّر صفة ومعنى التفكّر والتأمل، باعتباره تابعاً ومكملاً لأصل الإيمان، طبقاً للإطلاق القرآني. وإلا، أي من دون هذا الشّرط المنهجي، فإن الكثير جداً، مما هو أساس البُنية الفكرية التي أسّس لها القرآن، يغدو كلاماً لا طائل منه. مثل كيفية خلق السماوات والأرض والإنسان، واليوم الآخر، بما فيه من بعث وحساب وجزاء... الخ الخ. بالإضافة إلى ما وعد به المؤمنين، وما توعّد به العاصين. فضلاً عمّا قصّه علينا من أنباء ما قد سبق. وفيه من تفصيلات الأحاديث ما من المُحال على بشر معرفته بنفسه. إن القيمة الخاصة لكل هذا هي في أنه صادر عن الخالق المحيي المميت، ومَن هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير. ومن دون هذا الاعتقاد فهو كلام ممن لا يملك من أسباب المعرفة والقدرة أكثر مما يملك سائر البشر. ذلك أن الناس أكفاء متساوون بالقياس إلى معرفة تلك الأمور. لأنها إما من عالم الغيب، أو مما انقطعت عنا أسباب معرفته لبُعد الزمان. كما أنهم أيضاً أكفاء متساوون بالقياس إلى القدرة على الوفاء بالوعد وإنفاذ الوعيد.

من هنا تأتي مسألة إعجاز القرآن، أي أنه من عند الله، في المقدّمة منهجياً من كل تدبر لآياته. ومن الواضح أن منظور المتدبّر أو الدارس سيختلف كثيراً، وهو يتدبّر النصوص نفسها، وفقاً لمعتقده وما يذهب إليه في هذه المسألة الأساسيّة.

ومن التهافت المنهجي البائس، ما خرج به علينا عدد من الباحثين في السنوات الأخيرة. ممن اختلط عليهم الأمر في هذه النقطة المنهجيّة الدقيقة. فبينما نراهم يصرّحون بأن دراساتهم على القرآن مبنيّة ومؤسسّة على اعتقاد ثابت لديهم بأنه من عند الله. نراهم من الجهة الأخرى يخضعون آياته إلى اعتبارات مما يتأثر به البشر في كلامهم. ولا نشك أن هؤلاء سقطوا في هذا التهافت تأثراً منهم بالدراسات التي كتبها غربيون على القرآن، أو على الكتب المقدّسة عندهم. غير آبهين بأن هؤلاء يبنون دراساتهم على أن القرآن كتاب إنساني، جاء

Scanned with CamScanner

به النبي ﷺ من عند نفسه. أو أنه، مثلما يعتقد المسيحيون في «الكتاب المقدّس»، وحيٌ بمعانيه. ولكن السّبل والصياغة هي من عند من بلّغه.

الهوامش

(١) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٤٥، راجع: تفسير العياشي، ص٤٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٤، راجع المصدر نفسه، ص ٧٩.
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٢.
(٦) السيد الطباطبائي، تفسير الميزان، ٧٩/١١ و٨٠.
(٧) سورة النساء، الآية: ٥٩.
(٨) سورة الإسراء، الآية: ٣٥.
(٩) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(١٠) راجع: التبيان، ٣٩٩/٢، على سبيل المثال.
(١١) سورة النساء، الآية: ١٧٠.
(١٢) سورة النساء، الآية: ٨١.
(١٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٢و٥٣.
(١٤) سورة يونس، الآية: ٣٩.
(١٥) سورة ق، الآيات: ١٩ ـ ٢٢.
(١٦) سورة المزمّر، الآية: ٤١.
(١٧) سورة الشعراء، الآية: ١٩٥.
(١٨) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(١٩) سورة هود، الآية: ٦٧.
(٢٠) سورة الزمر، الآية: ٦٧.
(٢١) سورة محمد، الآية: ٢٤.
(٢٢) سورة الزمر، الآيات: ٩٦ ـ ٦٩.
(٢٣) سورة ق، الآيتان: ٢١ و٢٢.
(٢٤) سورة الأعراف، الآيتان: ٥٢ و٥٣.

* * *

Scanned with CamScanner